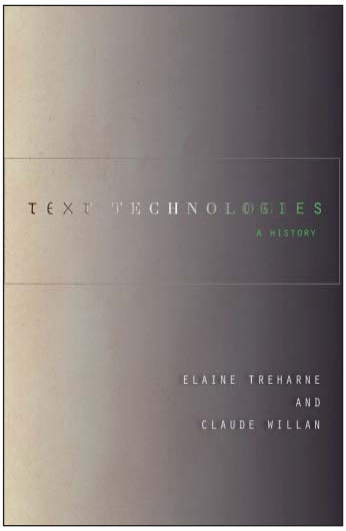

Elaine Treharne and Claude Willan.- *Text Technologies: A History* (California: Stanford University Press, 2020), 223 p.

إلين تريهارن وكلود ويلان.- تاريخ تكنولوجيات النص (كاليفورنيا: منشورات جامعة ستانفورد، 2020) 223 ص.

أصبح الاهتمام بتاريخ النصوص وتطورها يحظى بعناية بالغة لاسيما في الجامعات الغربية والأمريكية منها على الخصوص، حيث نجد عددا من الجامعات تدرّس هذا الحقل التخصصي الجديد مثل جامعة ستانفورد بكاليفورنيا، وجامعة ولاية فلوريدا. كما يُلاحظ صدور كثير من المؤلفات عن ما يسمى بـ "دراسات تكنولوجيا النص" نظرا لأهميتها التاريخية والحضارية المتزايدة في ظل التطور الهائل الذي يعرفه المجال التكنولوجي والرقمي في العالم. وفي هذا السياق يأتي كتاب **تاريخ تكنولوجيات النص** (2020) للباحثين إلين تريهارن وكلود ويلان، ليحاولا فيه تتبع مسار تطور النصوص والعلامات، والتأريخ لانتقال أشكال التواصل البشري من أقرب المراحل القابلة للتتبع من حوالي 70,000 سنة قبل الميلاد إلى الوقت الحاضر. وسنروم فيما يأتي تقديم الكتاب الصادر حديثا بالتركيز على محاوره الأساسية.

يُعرف مجال تكنولوجيات النص بأنه تحليل واسع وإطار تأويلي يركز على جميع السجلات النصية، ويمكن لهذه السجلات أن تأخذ شكل صور أو كتابة أو صوت أو حركة طالما أنها ذات مغزى وينتجها الإنسان. وتسعى تكنولوجيا النص إلى طرح جملة من الأسئلة مثل: لماذا؟ من قِبل من؟ متى؟ كيف؟ لمن؟ وفي أي سياقات تم إنتاج تلك التحف النصية؟

ويذهب الباحثان في الجزء النظري الأول من الكتاب إلى أن النص هو ما يتضمن علامات أو رموز أو أصوات من أي نوع كانت، تنقل المعنى عن قصد، وهي فئة مفاهيمية واسعة تشمل جميع أشكال الاتصال البشري. على أن العلامات أو الرموز التي تنقل المعنى وتعرضه قد تعتبر بحكم تعريفها مادية وعبارة عن ظواهر ملموسة تتراوح بين علامات على الصخور إلى نقط ضوء على الرادار. وهكذا، يمكن أن يتخذ النص عدة أشكال مختلفة، إذ يمكن أن يكون – حسب المؤلفيْن – كرسيا أو مبنى حكوميا

(تصميمه، الهندسة المعمارية، الزخارف...) فضلا عن الناقلات الأكثر تقليدية للمعنى من قبيل: الإعلانات والرسوم المتحركة، والعملات الرقمية (Bitcoin)، والملصقات، والأغاني، والمجلات، والصحف، وأشرطة الفيديو، والكتب. ومن هذا المنطلق ينتهي الباحثان إلى تعريف النص بأنه ظاهرة ابتكرها الإنسان طوعا أو عمدا تحتوي على رسالة قابلة للتأويل وذات معنى، وفي متناول مجتمع من المتلقين (حتى لو كان هذا المجتمع يتكون من شخص واحد يحدث نفسه). وبذلك يخلصان إلى أن النص هو ما ينتجه الإنسان فقط ويكون ذا معنى. ولا شك أن هذا التحديد يوسّع من دلالة النص، ويقدّم له أبعادا جديدة لم تُدرس من قبل، فلطالما تم ربط النص بالكتب والمصنفات حصرا، بينما لم تُدرس علامات المرور والإعلانات والكتابة على الجدران والكتابة على الجسد وأوراق العُملات النقدية والأغاني ... إلخ، على أساس أنها نصوص، إلا في السنوات القليلة الماضية.

وقد اهتم الباحثان بتطوير ثالوث أساسي من المفاهيم يمكن اعتبارها بنية جميع تكنولوجيات النص، إذ يمكن تصنيف أي نص باستخدام هذا الثالوث ووصفه بدقة متناهية. وأول عنصر من هذا الثالوث هو القصدية، (Intentionality) ويسأل عن القصد من النص، ذلك أن كل نص له قصدية تتحكم في إنتاجه. ثم العنصر الثاني المتمثل في التحقق المادي (Materiality)، ويبحث في عناصر الكائن النصي والأدوات المستخدمة في إنتاجه، ويتتبع مسار إنتاج النصي وتطوره: الصخر، الطين، البردي، الورق، الطباعة، الكتابة، الاستنساخ الرقمي... أما الثالث فيتحدد في الوظيفية (Fonctionality)، وتطرح أسئلة من قبيل: ماذا يفعل هذا النص في الواقع؟ كيف يؤدي دوره في العالم الحقيقي؟ وما سيرته عبر امتدادات هذا التاريخ الطويل الأمد؟ بمعنى أنها تبحث في السياق التاريخي للنص ودلالته الوظيفية. إضافة إلى هذا الثالوث، يأتي مفهوم آخر يسمى القيمة الثقافية (Cultural value)، ذلك أن أي استخدام لتكنولوجيا النص لا ينفصل عما هو ثقافي واجتماعي. وبذلك يتداخل هذا المفهوم سلبا أو إيجابا مع العناصر السابقة، ويمكن توضيح ذلك على الشكل التالي:

Text= Intentionality+ materiality+ Functionality +/—cultural value.

النص= القصدية+ التحقق المادي+ الوظيفية+/ – القيمة الثقافية.

ويلاحظ مؤلِّفا الكتاب أن هناك قلقا ينتاب الأكبر سنا إزاء نص الابتكارات التكنولوجية للأجيال الشابة، على اعتبار أن هذه الأشكال الجديدة للنصوص ستقوّض – في نظرهما – الحياة كما نعرفها وستغيّرها بشكل لا رجعة فيه نحو الأسوأ. على أن هذه

الوسائط الجماهيرية الجديدة (فايسبوك، تويتر ...) قد أتاحت الوصول إلى المعلومات دون أي وساطة ودون تدخل من السلطة، عكس ما كان يحدث في الماضي. فالمعلومات والأخبار كانت تخضع للرقابة ولم تكن تنتشر على نطاق واسع.

ويعمد الباحثان في الجزء الثاني إلى تقديم لمحة عامة عن تاريخ تكنولوجيا النص من الرسوم الصخرية بالكهوف إلى تطبيق السْنَابْ شَّاتْ (snapchat)، حيث يستهلان المبحث بالحديث عن النقوش الصخرية بكهف شوفيت (Chauvet cave paintings) التي تم اكتشافها من قبل ثلاثة علماء سنة 1994 بفرنسا وتعود إلى نحو 30,000 سنة. وهي عبارة عن لوحات تتضمن رسومات ونقوش تحتوي على صور للخيول وغيرها. ثم يعرّفان بمجموعة من اللوحات والقطع الأثرية القديمة وصولا إلى التوقف عند علامات المرور والإعلانات، قبل أن يخلصا إلى أن العلامات تشكل "جزءا كبيرا من الحياة اليومية لدرجة أننا لا ندرك بوعي ما نراه، على الرغم من أننا نقوم بتسجيل التعليمات أو المعلومات التي تتصل بها العلامات." كما أن هناك أشكالا لا تحصى من العلامات في المجتمع الحديث. ثم يقدمان تعريفات لكثير من الأنواع مثل النقوش والكتابة على الجدران والأوراق...

ويشير الكتاب إلى أن الورق موجود في الغرب منذ حوالي ألف سنة فقط، ولكن وقع استخدامه في الصين منذ حوالي مائة سنة قبل الميلاد. وكان يُصنع في الأصل من ألياف النباتات الطبيعية، مثل التوت والقنب. هذا على الرغم من أن الورق كان في كثير من الأحيان خشنا وغير متساوي الجودة. لكن منذ القرن الثامن عشر تم اختراع الآلات التي جعلت من الممكن إنتاج الورق بكميات كبيرة، ومع مطلع القرن التاسع عشر اخترعت آلة اشتهرت باسم صانعها اللندني فوردرينيي (Fourdrinier) التي سرّعت تصنيع الورق وبجودة أفضل.

ويواصل الكتاب البحث في تاريخ الكتابة على الجلود والمخطوطات والكتابة على الجسد والمسودات الثقافية والكتب الدينية والصحف وتاريخ القراءة والمكتبات، وصولا إلى الصوت والصورة والراديو والأفلام والتلفاز والتكنولوجيا الرقمية التي جاءت بالحواسيب واللوحات الإلكترونية والهواتف الذكية، وبرزت إلى الوجود الرسائل الإلكترونية ومحرك البحث الشهير گوگل (Google) وبرنامج المايكروسوفت (Microsoft) وغير ذلك كثير من وسائل التواصل المختلفة. وقبل أن يتوقف الكتاب في الجزء الثالث عند دراسة خمسة نصوص مختلفة ومتنوعة، هي: ورقة من فئة دولار واحد (One-Dollar Bill) من خلال تفسير محتواها البصري والنصي والرمزي،

ووصف طريقة طباعة الحروف وسمك الورق، والتوقف عند عبارة "نثق في الله" (In GOD we trust) الموجودة على واجهة الورقة النقدية. وقرص روزيتا (Rosetta Disk)، إحدى النصوص الأكثر تميزا من الناحية التكنولوجية في العالم، تأسست سنة 1996 بعد ثماني سنوات من العمل، وتحمل أكثر من 13,000 صفحة، وتوثق لما يعادل 1500 لغة، ويتميز القرص بأنه عديم التأثر بالماء ودرجة الحرارة المرتفعة ولا بأي إشعاع، وبذلك يُسهم في حفظ المعطيات للأجيال القادمة. كما يتضمن قائمة كاملة من اللغات المؤرشفة مقسمة حسب القارات، وعلى القرص تم وضع العنوان بثماني لغات هي: الإنجليزية، والعربية، والإسبانية، والسيريلية (Cyrillic)، والكانتونية (Catonese). هذا فضلا عن التوقف عند أسطوانة سايريس (Cyrus Cylinder)، وألبوم موسيقي شهير بعنوان فندق كاليفورنيا (Hotel California) ومطبعة كيلمسكوت (Kelmscott) وإنتاجه الهام.

ويختم الكتاب أجزاءه الأربعة بدراسة الانتقال من نص إلى آخر، وخاصة من المخطوط إلى الطباعة، ومن القرص المضغوط (CD) إلى مشغل الإيم إي بي ثري (Mp3). ثم ينظر في كيفية تغيّر هذه الوسائط والحوامل لتتناسب مع كل مرحلة. ويكشف عن أن التحول التكنولوجي في الغرب من المخطوطة إلى الطباعة هو أحد أهم الأحداث في السنوات الألف الماضية، موضحا أن من أهم التغييرات الناجمة عن ظهور الطباعة هو التطور الهائل في محو الأمية من ناحية أولى، وجعل نشر النصوص أرخص بكثير من ناحية ثانية. ويدافع الكتاب عن أن المطبعة فعلا "غيّرت كل شيء،" وهو ما يلخّصه سيگريد شتانبرگ (Sigrid Steinbeerg) بقوله "لا يمكن فهم الأحداث السياسية والدستورية والكنسية والاقتصادية، ولا الحركات الاجتماعية والفلسفية والأدبية تماما دون مراعاة تأثير المطبعة عليها." ومن ثمة يخلص الكاتبان إلى أن "الطباعة لم تغيّر فقط عدد الأشخاص الذين يمكنهم القراءة أو عدد النصوص التي يقرأها هؤلاء الأشخاص، بل غيّرت القراءة نفسها."

ويتّضح من قراءة المؤلَف أن مرجعيته تتأطر بين حقلين اثنين؛ يتمثل الأول في الدراسات التاريخية التي تظهر في عودة الباحثين إلى التنقيب في تاريخ النصوص وتتبعها تتبعا زمنيا يؤرخ لتاريخ ظهورها وتطورها، أما الحقل الثاني فيتحدد في الدراسات الأدبية، ذلك أن الكتاب يبحث في بنية النصوص ويحللها ويؤولها. لكن الباحثين يختلفان مع التوجه البنيوي مثلما ظهر في الستينيات من القرن الماضي حين نادى بـ "موت المؤلف،" لأنهما يوليان أهمية بالغة للقصدية والسياق في فهم النص. ومن هنا، فإن دراسات التكنولوجيا النصية تمثل دراسات تاريخية – أدبية تعيد بناء تاريخ النصوص

استنادا إلى معطيات تاريخية من جهة، وهو ما يظهر بجلاء في القسم الثاني والرابع، وإلى ما يقدمه الأدب من تقنيات في دراسة النص من جهة ثانية، وهو ما يتجلى في الجزء الثالث بالخصوص.

ولعل ما يميز الكتاب، فضلا عن إطاره النظري الصلب، منهجيته في تناول القضايا المتنوعة والبعيدة تاريخيا وزمنيا وثقافيا، عبر الانتقال من وسيط إلى آخر بسلاسة دون فقدان الخيط الناظم، ودون وقوع أي تتنافر بين أجزاء الكتاب، ودون أن نشعر من جهة ثالثة بأننا أمام مؤلِّفين لا مؤلِّفا واحدا. وعلاوة على ما سبق، نلمح أن للكتاب طابعا تربويا وبيداغوجيا مصرّحا به في بداية الكتاب، على اعتبار أنه موجه للطلبة والباحثين والمهتمين قصد تعريفهم بهذا الحقل المعرفي الجديد. وفي هذا الصدد يعتبر دين گريگار (Dene Grigar) بأنه إذا كان هناك كتاب قادر على تعيين العلوم الإنسانية والعلوم الإنسانية الرقمية عبر توفير مجموعة معرفية واسعة حول تقنيات النص للطلاب، فإنه هو هذا الكتاب. ويبرز الطابع التعليمي للمؤلَّف عبر طرح جملة من الأسئلة عقب بعض المفاهيم النظرية والتطبيقات النصية بغرض التحفيز على البحث والفهم وتحقيق التفاعل الحقيقي مع عناصر الكتاب وأفكاره.

واستنادا إلى ما سلف، يمكن القول إن للكتاب أهمية قصوى، ليس فقط لطبيعة الموضوع الذي يدرسه، ولا لحداثة صدوره، بل أساسا لمنهجيته وللمفاهيم الإجرائية المقدَّمَة التي يمكن تطبيقها على عدد لا متناهي من النصوص والوسائط الرقمية الحديثة بغية فهمها واستيعابها على النحو الصحيح. بيد أنه يُلَاحظ شبه غياب لمثل هذه الدراسات في العالم العربي، لكن منذ مطلع الألفية الثالثة نجد تبلور وعي رقمي وإن كان محدود التأثير، وبدا ذلك في صدور أعمال مهمة تهتم بالثقافة والأدب الرقميين، مثل كتاب: **من النص إلى النص المترابط** (2005)، و**النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية: نحو كتابة رقمية عربية** (2008) لسعيد يقطين؛ وكتاب **الأدب الرقمي** (2009) لزهور كرام؛ ومؤلف **الرقمية وتحولات الكتابة** (2015) لإبراهيم أحمد ملحم. هذا بالإضافة إلى بعض الترجمات الجديدة، أنجزها سعيد بنكراد بعنوان: **أنا أوسِيلفني إذن أنا موجود** لصاحبته إلزا گودار(2019)، وكتاب **الإنسان العاري: الديكتاتورية الخفية للرقمية** لمؤلفيه مارك دوگان وكريستوف لابي (2020).

سعيد الفلاق

سلك الدكتوراه، جامعة محمد الخامس بالرباط